

المغالطة

في الوسائل والغايات

للأستاذ عبد الرحمن شكري

النبيلة الشريفة ، فإذا اقتنمت سهل عليها أن تتخذ الوسائل الدينية لمحاربة من ترى في محاربه ظاهراً انتصار منها لهذه المطالب ، فتتخذ من وسائلها النيمة والكذب واستشارة الأحقاد بالنيمة والغيبة والكذب ، وكل هذه وسائل دينية ، وتحيل النفس على المبدأ المعروف الذي يقول أصحابه إن الغاية تبرر الوسيلة ، فتكون النفس قد خطت خطوتين في المغالطة والايهام : الأولى تحويلها الغاية الدينية إلى غاية نبيلة ، وهذه خطوة خطتها كي تخطو الخطوة الثانية وهي اعتناق مذهب البربرين للوسيلة ببطل الغاية ؛ ولو أصبح هذا المذهب عقيدة عامة مقدسة لانهارت أركان الديانات وتفككت عن النفوس عرى الفضائل وأحلت قيودها وتسفلت النفوس ، ولكن النفوس تأخذ بهذا المبدأ عملياً وفي خفية أو تبته بطريق الايحاء وهو من أسباب تحول النفوس عن الخير والفضيلة حتى على خفاء العمل به والاحتيايل لتركته بوسائل النفوس الجشعة التمشطه للكاسب كما هي نفوس أكثر الناس في أحوال كثيرة وأحسب أنه لولا المغالطة الأولى أي الوهم الذي يقلب الغاية الوضعية ويجعلها غاية شريفة لما أكثر أخذ الناس بالمبدأ الذي يبرر الوسيلة بالغاية النبيلة ، إذ أن تلك المغالطة الأولى هي الأساس الذي يبنى عليه هذا المبدأ في كثير من الأحوال والذي يبيح للناس كل وسائل الشر فيواقفونها وهم يحسبون أنهم على خير وإلى خير وفضل

وإذا تتبعت غايات الناس في مساعيهم المختلفة وجدت أن كلاً منهم مهما سفلت غايته يزكها ويرفع من شأنها ويلبسها لباس الفضيلة أمام نفسه وأمام الناس ، وهو يفعل ذلك إذا كانت غايته وضية أكثر مما يفعل إذا كانت غايته رقيقة ، لأن الغاية الرقيقة ليست في حاجة إلى كل هذا الجهد ، وعلى قدر شعور المرء بحقارة غايته تكون رغبته في مغالطة نفسه ، وعلى قدر تسفل تلك الغاية يكون غيظه وحنقه ممن بطله أو يطلع الناس على حقيقة غايته وأسبابه التي يخفيها . ومن العجيب أنه يحارل أن يستفيد أيضاً من هذا الغيظ الذي سببه الأناية فيظهره بمظهر الغضب للحق أو الفضل أو الخير أو الدين ولا يزال بنفسه حتى يقتنها أن غيظها ليس غيظ الأناية المحقق الذي اطلع أو كاد أن يطلع أو يخشى أن يطلع الناس على دناءة غاياته أو وسائله فيوهما أنه غيظ مقدس نبيل وغضب شريف ، وهي إذا اقتنمت واعتقدت ذلك سهل عليها اقناع الناس بما اقتنمت به من باطل ، وهنا

كل انسان ظالم في أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة ، فإن المرء قد تميل به رغائب نفسه وحاجاتها وشعورها حتى يحسب غايته الدينية ، ومقصده الوضيع ، ورغبته الخسيسة ، غاية عالية ، ومقصداً نبيلاً ، ورغبة شريفة ؛ وأساسها لو فطن له الفرور والاحجاب بالنفس ، أو محاولة اخفاء نقائصها ، أو محاولة كسب الجاه ، أو النعمة من حساب غيره ؛ ومتى تهياً له قبول الغاية الدينية ، كأنها غاية نبيلة سهل عليه أن يغالط نفسه مغالطة أخرى ، فيزعم أن الغاية النبيلة تركي الوسيلة الدينية . ولا يجد بين الناس من لا يغالط نفسه هذه المغالطة أيضاً في أمر واحد أو أكثر من أمر واحد من أمور الحياة

وهذه المغالطة المزروجة تجعل المرء يزكي الوسيلة الدينية بانماية الدينية ، لأنه أولاً غالط نفسه فحسب الغاية الدينية غير دينية ، ثم غالط نفسه وحسب هذه الغاية تبرر الوسيلة الدينية ؛ وقد يغالط المرء نفسه مغالطة ثالثة ، فيحسب الوسيلة الدينية نبيلة ، وهذا من قبيل الاحتياط إذا لم يستطع أن يزكي عمله لدى الناس بمبدأ تبرير الوسيلة بالغاية

وهذه المغالطات الثلاث تصل بالمرء إلى حالة نفسية يرى فيها أنه يحاول بلوغ الغاية النبيلة بالوسيلة النبيلة ، وهو إنما يحاول بلوغ الغاية الدينية بالوسيلة الدينية . ولما يفتن الناس إلى هذه المغالطات في أنفسهم ، وقد يعمون عنها في نفوس معاشريهم ، فالمرء قد يكون مدفوعاً في سلوكه بما ركَّب في نفسه من طبائع الشر ، أو لأنه يُعنى نفسه أن في قوله أو عمله منفعة لنفسه ، أو لأنه يرى فيها إعلاء لنفسه أو لرغبته في الظهور بمظهر النيرة على الخير والحق ومظهر كره الباطل والشر أو لسبب آخر من أسباب عديدة متنوعة ، ولكنه لا يزال يروض نفسه حتى يصر فيها عن الأسباب الحقيقية وحتى تمتد نبل غايتها ومقصدها ، وأن مطالها الحق أو الفضيلة أو الخير أو الدين ، ولما يجد في الناس من يعجز عن أن يقتنع نفسه أنه إنما يبادى أو يصادق من أجل هذه المطالب

وسائلهم ويخشون أن يعرفوا ضعفها بعد اعتقادهم بلها فهذا أمر
يفاجئهم مفاجأة قد تحدث هزة في النفس وهذه الخشية تريد غيظهم
وحقهم فيدفنون بالغيظ ذعرهم من أن تنأى بهم ضعة غاياتهم عن
عزائم النجاح ومساغيه ، وهم يخشون الفشل والضيعة ، وما قد
يكون فيهما من الذلل أو فقدان وسائل الحياة نفسها ؛ ولا شيء
يدعو إلى القسوة مثل ذعر المرء إذا خشى أن يفقد وسائل الحياة
على اختلاف مناقمها يفقد اعتقاده ببل غاياته ووسائله حتى ولو كان
فقدته وسائل الحياة من أجل ذلك بعيد الاحتمال .

ولكن كثيراً ما يحصن المرء ضعة غاياته ووسائله بما يمتد
الناس فيه وما يمتد هو في نفسه من الفضل والجاه والتبيل
والصدق ، ولا تخلو نفس من شيء من هذه الصفات قل أو أكثر ،
وكما أكثر نصيب المرء من هذه الصفات كثرت حصانه غاياته
ووسائله ، ومن أجل ذلك ترى الرجل الذي يعتقد الناس فيه
هذه الصفات أقدر على مناظرة الناس ومفاطلة نفسه فتسهل هذه
المناظرة بما له عند نفسه وعند الناس من ثقة بنصيه من هذه
الصفات ، وهذا الرجل أشد خطراً على الحق والخير إذا غالط نفسه
أو غالط الناس لأنه يسهل تصديقه والافتداء به ولا يحسب أحد
أن له غاية حقيرة أو وسيلة دينية بجانب ما في نفسه من صفات
الفضل والصدق والحق أو بجانب ما اكتسب من جاه وثقة

وكما أنه يسهل أن تحول الغاية الدينية غاية رقيقة نبيلة وأن
تعتقد أن تلك الغاية التي صارت نبيلة في نظرها تبرر الوساطة
الوضيعة يسهل أيضاً أن تستغنى النفس عن الخطوة الثانية وهي
تبرير الوساطة الوضيعة أو تحوّلها إلى واسطة نبيلة وإبرازها
للناس كأنها واسطة شريفة سامية بدل تبريرها بالغاية والقصد ،
وهذا من شدة احتياط النفس عند من قد يرفض ذلك التبرير
ويأبى تلك التركيبة ، ونظرة من الباحث المتقصى وسائل الناس
تدل على أنهم يتسامون عن ضعة وسائلهم ويقالون في إبرازها في
حلة الوسائل السامية وإنما الخلاف بينهم في تركيبة كل منهم
وسائلهم وآتهم وسائل غيرهم . وقد يمرض للباحث سؤالان هما هل
يتاح للانسان عصر يكتر فيه من بحث نفسه وتقصى حقائقها ؟
وهل يرفع هذا التقصى من نفس الانسان ؟ ؟ أحسب أن هذا
لا يكون ما دام ذعره خشية فقدانه وسائل الحياة على اختلاف
أنواعها وافماً محذوراً

منشأوم كبير يقع فيه الناس ، فانهم إذا أبصروا إنساناً عظيم
التأثير في الناس تمديهم شدة اعتقاده واقتناعه حكوا أنه على
حق ، ولا سيما إذا كان الحاكم هذا الحكم قليل الخبرة بالنفس
الانسانية ، فاذا زادت خبرته بالنفس علم أن شدة اعتقاد الانسان
وعظم اقتناعه وما ينشأ عنهما من عدوى تؤدي إلى شدة اعتقاد
الناس وعظم اقتناعهم لا يدل على أن هذا الانسان على حق فيما يعتقد
وفما أعدى الناس اقتناعه به ، ولكنها سنة مألوفة لدى الباحث
في النفس وهي أن الاحساس الشديد ينتقل كالعدوى لشدة
وكذلك الاقتناع العظيم ينتقل من نفس إلى نفس كالعدوى اعظمه
للاصوابه ، ولما كان الاقتناع المؤسس على الحقد أو الأناية شديداً
لأنه مؤسس على إحساس شديد وهو الحقد أو الأناية سهل
انتقاله إلى نفوس الناس شأن كل اقتناع مؤسس على إحساس
شيء شديد آخر ، وأحسب أن الناس معذورون بمض العذرة في
هذه المناظرات النفسية وفي بعض هذا النيط والحقن إذا كشف
كاشف عن تسفل غاياتهم أو وسائلهم لأنه إذا أتبع لأكثر الناس
فهم حقارة غاياتهم ووسائلهم والتأثر بهذا الفهم والتألم من أجل
تلك الحقارة ضاعت ثقهم بأنفسهم وضاعت ثقة الناس بهم
واعترام الضعف في معالجة أمور الحياة ومعالجة مطالبهم فيها ولا
سراء أن بعض هذه النتائج محمود إذا بلغت بهم منزلة القصد
والمبدل والحق ولم تنحدر بهم إلى منزلة الضعف والعجز ولم تنل من
عزائمهم كل منال ، ولكن الناس يعرفون أن نفوسهم قلما تنتقل
من إحساس إلى إحساس إلا من قبيض إلى قبيض مثل رقص
الساعة فن فعل إلى رد فعل ، ومن رأى إلى تقيضه ومن شعور
إلى عكسه فتغيرم النفسى يختلف عن تغير أمور الطبيعة . ومن
أجل ذلك ترى أن الناس في حياتهم وتاريخهم يسبقون سنة
التغير في الطبيعة فيحدث رد فعل ورجمة في أمورهم كي يرجعوا
إلى ما يناسب تغير أمور الطبيعة ، وهذا هو سبب كثرة ما يشاهد
من قترات الرجمة ورد الفعل في تاريخ البشر وفي حياتهم

وهذه الطفرة في إحساس النفس مشاهدة بصفة خاصة في
العامة والفسار والجهلة والقليل المدنية أكثر من مشاهدة الباحث
لها في الخاصة والكبار والمعلمين والكثيرى المدنية . ومن أجل
تردد النفس بين الاحساس وتقيضه يخشى الناس على عزيمتهم في
الحياة ويخشون النتائج التي يأتي بها اطلاعهم على حقيقة غاياتهم